ظالمون ومظلومون

لم يكتب هذا القلم فى تاريخه إلا ما يعتبره حقا وصدقا ، ودون طلب لرضا سلطة، أو انزلاق إلى نفاق جماعة ، وقد اختلفت ـ ولا أزال أختلف ـ مع قيادة الإخوان إلى يوم يبعثون ، وأحمل هذه القيادة البائسة مسؤولية أساسية عن قتل المئات من شباب الإخوان ، والذين دفعتهم إلى مصادمات مدبرة مع سلطات الأمن فى حوادث دار الحرس الجمهورى والمنصة واعتصامى ميدان النهضة وإشارة رابعة العدوية ، وبما أدى إلى مآس ومجازر دم مفزعة ، لا نبرئ سلطات الأمن منها تماما ، فقد استخدمت القوة المفرطة فى كثير من الأحيان ، وفى سياق غضب شعبى جارف ، يتعامل مع جماعة الإخوان كأنهم "طائفة منبوذة"، ولا يلتفت إلى دواعى الدين والأخلاق والضمير ، ويتساهل فى حرمة الدم التى هى أشد عند الله من حرمة الكعبة المقدسة .

وما من ضمير حى يقبل ـ بالطبع ـ حكم القتل خارج القانون ، لانفرق فى الدم ، لانفرق بين دم شباب الإخوان ودم المسيحيين المصريين ، ولا نفرق بين دم الأهالى ودم الضباط والجنود فى الجيش والشرطة ، وقد سقط المئات من الضباط والجنود فى المعركة مع جماعة الإرهاب اللصيقة بقيادة الإخوان ، ودون أن يبادروا بطلقة رصاص واحدة ، وكما جرى فى مذبحة قسم شرطة كرداسة ، والتى سقط فيها ضباط كبار من الشرطة ، وجرى التمثيل بجثثهم فى انحطاط ووحشية وخسة لا مثيل لها فى التاريخ المصرى ، فكل الدم المصرى حرام ، ومصر ليست ـ ولن تكون أبدا ـ بلدا لحرب أهلية ، والعنف الذى شهدته مصنوع ومفتعل ، ولا يقوم على أساس أخلاقى أو سياسى مقبول ، والإدعاء بالدفاع عن شرعية أو ديمقراطية لا محل له من الإعراب ، فلم تكن قيادة الإخوان أبدا من النوع الذى يحتسب فى خانة السعى للديمقراطية ، ولم تكن

نصيرة لفكرة الثورة فى أى وقت ، والرئيس الإخوانى ـ المعزول ـ محمد مرسى لم تكن له أى شرعية حين سقط ، لم تكن له شرعية الرضا العام وقت أن ذهب إلى قصر الرئاسة ، ثم سقطت عنه شرعية الفوز الانتخابى منذ أن أصدر إعلانه الديكتاتورى المنكود فى ٢١ نوفمبر ٢٠١٢ ، والذى أعدته له قيادة الإخوان البائسة، ثم وضعت عليه توقيعه ، وحتى تحوله من رئيس كان منتخبا إلى حاكم بأمره ، أو بأمر مكتب الإرشاد ، والذى تصور أن مصر وقعت فريسته ، وإلى عشرات ، أو ربما إلى مئات الأعوام ، وقد استهان هؤلاء بمصر فرمتهم إلى أسفل سافلين ، وفى ثورة شعبية عظمى اتصلت موجاتها المتلاحقة على مدى ثلاثين شهرا ، من ٢٥ يناير ٢٠١١ إلى الثلاثين من يونيو ٢٠١٣ ، وشرعية الثورة فوق كل شرعية مدعاة، وحتى لو كانت شرعية تصويتات انتخابية جرت فى لحظات فوات عقلى ووجدانى عابر ، وقد كانت محنة حكم الإخوان القصيرة العمر فرصة هائلة لتطوير الثورة نفسها ، فقد أزاحت الغشاوات عن الأبصار ، وحولت حزب الإخوان من حزب أكثرية إلى جماعة أقلية ، ونزلت بشعبية الإخوان إلى مستويات عظيمة التدنى، وهو ما قلناه لقيادة الإخوان مرارا وتكرارا، ونصحناهم باللجوء لانتخابات رئاسية مبكرة ، تنهى حكمهم الفاشل بامتياز ، وبطريقة ديمقراطية ونظامية جدا ، ودون أن تريق ما تبقى لهم من ماء الوجوه ، لكنهم عصبوا أعينهم عن رؤية الحقائق الناطقة ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وتلبستهم حالة من الإنكار المرضى ، وأصابهم الغرور ، ودهمتهم العجرفة ، وإلى أن جرى ما جرى، وانحازت قيادة الجيش إلى أعظم ثورات التاريخ الإنسانى ، وعزلت مرسى كما خلعت مبارك ، فلم يكن حكم الإخوان ـ ولا أقول حكم مرسى ـ سوى تكرارا باهتا وهزليا لحكم جماعة مبارك ، وهو ما يفسر حرص قيادة الإخوان على رفض المحاكمات الثورية لجماعة مبارك ، وتفضيل ما أسمته بالمحاكمات العادية ، وهى تعرف يقينا أنها ستنتهى إلى تبرئة الرئيس المخلوع ، ربما لأنها كانت تدرك ـ بالغرائز ـ أن تبرئة مبارك ضمانة لتبرئتها هى نفسها فيما بعد ، حين يحل عليها الدور التاريخى، وينتهى "مرسيها" إلى مصير مبارك .

وبعيدًا عن حساب الأخلاق الذى يجرم ويحرم كل دم ، فقد سقطت قيادة الإخوان فى وحل سياسة تحطم كل معنى للأخلاق أو الدين ، فلم تملك شجاعة الاعتراف بالخطأ والعجز والتسليم بالهزيمة ، واستعدت شعبا كشف عوراتها ، استعدت الشعب الذى أرادت أن تحكمه ، فلما استعصى عليها الحكم ، أرادت أن تقتل الشعب ، وحتى لو ضحت بكل شباب جماعة الإخوان فى ميادين الدم ، وواصلت الكذب السياسى والكذب باسم الدين ، وحولت الكذب من عادة إلى عبادة ، ثم أضافت نزعة القتل إلى نزعة الكذب ، وبدا مشهد قيادة الإخوان "شمشونيا" بامتياز ، لكنها بدلا من أن تنتحر هى ، لجأت إلى نحر أتباعها ، وإلى غسل ذنوبها بدم شباب الإخوان ، واستعبدتهم بدعوى السمع والطاعة ، بينما لاسمع ولا طاعة تجوز لغير الله ورسوله ، ولا طاعة فى معصية الله ، وقد انطوى خطاب قيادة الإخوان فوق منصة رابعة العدوية على معاصٍ وآثام عظيمة ، وعلى فساد ظاهر خارج عن أصول الاعتقاد الإسلامى ، خذ عندك ـ مثلا ـ ما أشاعوه عن ظهور سيدنا جبريل فى اعتصام رابعة العدوية ، بينما يعرف أبسط المسلمين ثقافة أن سيدنا جبريل هو ملاك الوحى ، وأنه لا وحى ينزل من السماء بعد الوحى الذى حمله جبريل للنبى محمد خاتم المرسلين ، وخذ عندك ـ مثلا ـ دعوى أن محمد مرسى كان إماما فى صلاة حضرها من خلفه النبى محمد ﷺ شخصيا ، ولم تخجل قيادة الإخوان من سوق التخاريف وروايات التجديف ، فقد أرادت أن توهم شباب الإخوان بأنهم يجاهدون فى سبيل الله ، بينما قيادة الإخوان تصد عن سبيل الله ، وتستنفر شبابها فى سبيل مرسى والكرسى ، وهى تعرف يقينا أنه لا عودة لمرسى، ولا عودة للإخوان إلى الكرسى بأى سبيل شعبى أو ديمقراطى ، وكل ما أرادته هو افتعال صورة الضحية ، ودفع الشباب إلى المقتله ، واصطناع مظلومية تتسول بها عطف القطاع الأوسع من المصريين المعرض عن الإخوان ، كانت القصة كلها مدبرة ، ولا أثر فيها لغضب عفوى أو تلقائى ، وأرادت منها قيادة الإخوان أن تحمى رأسها ، وأن تنجو من غضب قواعد الإخوان المصدومة بالفشل المذهل ، أرادت قيادة الإخوان أن تستدير بغضب قواعد الإخوان المنقادة

إلى عنوان آخر ، وأن تحرق البلد وتقتل الناس عوضا عن فشلها فى حكمهم ، وهنا ظهر الوجه المخفى لقيادة الإخوان ، والذى أخفته بتلال من "المكياج" الدينى والسياسى ، ظهر الوجه الإرهابى على حقيقته بغير الرتوش ، واعترف أحد قياديها - من فوق منصة رابعة العدوية - بروابط العروة الوثقى بين الإخوان وجماعات الإرهاب فى شرق سيناء، ووضعت القيادة البائسة خطة الانتحار "الشمشونى" قيد التنفيذ ، وجعلت ساعة الصفر فى توقيت فض الاعتصام المسلح ، ففى ذات اللحظة ، وبالدقيقة والثانية ، انطلقت عناصر التنظيم السرى المسلح تدمر وتحرق وتقتل ، وبنمط بدا متكررا بالحرف فى طول البلد وعرضه ، ودون شذوذ عشوائى عن خطوط بدت محددة بدقة ، وشملت - على ما نعلم - قتلا عشوائيا لكل من يصادف فى الطرقات ، وحرق لأقسام الشرطة ودووايين المحافظات ومجالس المدن ، وتدميرا وحشيا للكنائس والمتاحف والمكتبات العامة، كان تصور قيادة الإخوان أنها تنفذ عصيانا مسلحا أو انقلابا مسلحا ، وأنها تشيع الفوضى ، وتستولى على السلطة ، وبذات خطة الانقلاب التى جربتها "الجماعة الإسلامية" قبل أكثر من ثلاثين سنة ، حين اغتالت السادات على منصة العرض العسكرى ، ثم ذهبت لاقتحام مقار الشرطة وقتل الضباط والجنود ، وقد فشلت الخطة الساذجة وقتها ، وتماما كما فشلت خطة الإخوان المطورة هذه المرة ، فليس بوسع أى جماعة أن تناطح الدولة المصرية باختيار اللجوء إلى العنف.

وباختصار ، فقد ظلمت قيادة الإخوان أهلها ، أشعلتها نارا تحرق شباب الإخوان قبل غيرهم ، وتعزلهم عن الشعب الذى صار يخافهم وينبذهم ، ويتساهل فى دمهم، وقد آن لشباب الإخوان المظلومين أن يعرفوا حقيقة الظالمين، فليست قوة السلطات المفرطة هى وحدها التى تظلم ، بل الظالم الأصلى اسمه "الغباوة المفرطة" لقيادة الإخوان، واللهم قد بلغت، فاللهم فاشهد .

"صوت الأمة " فى ٢٦ من أغسطس٢٠١٣.